ومن البيّن أنّ ثمّة مكذّبين للرّسل السّابقين، ومكذّبين لمحمّد بن عبدالله ﷺ، فالآية الكريمة تشتمل على معنيين اثنين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

وبما أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم لا يؤمنون بيوم القيامة وقد أسلموا للشّيطان الرّجيم قيادهم فإنّ السّياق يحذّرهم بصريح اللّفظ من الخطأ الشّنيع الّذى يرتكبون، والهاوية الّتى إليها يتّجهون. ينادى السّياق النّاس ويعنى كفّار مكّة في المقام الأوّل ويقول لهم: إنّ وعد الله تعالى حقٌّ بالبعث والنّشور والحساب والجزاء، الثّواب والعقاب. إنّ عليكم ألاّ تغرّنّكم الحياة الدّنيا بزينتها، وألاّ يخدعنّكم الشّيطان الرّجيم بزخرف القول وغروره.

إنّ الشّيطان الرّجيم عدوّكم اللّدود أيّها النّاس، فاتّخذوه عدوّاً لكم بطاعة الله تعالى ومعصية اللّعين الّذى يدعو حزبه وأتباعه إلى طرق الضّلال كي يكونوا يوم القيامة من أصحاب الجحيم الخالدين في السّعير.

إنّ على النّاس ألاّ يغرّنّهم عن وعد الله تعالى الحقّ، الحياة الدّنيا من ناحية والشيطان الرّجيم من ناحية أخرى. والشّيطان العدوّ اللّدود للنّاس ينبغى اتّخاذه عدوّاً. وهو يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب النّار الموقدة. وهكذا تتجلّى المعانى الثّنائيّة بوضوح.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

الّذين كفروا وغرّتهم الحياة الدّنيا والشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامة. والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم من الله تعالى مغفرةٌ لذنوبهم وأجرٌ كبيرٌ وثوابٌ عظيم بسبب إيمانهم بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالقرآن الكريم، وبسبب طاعتهم للرّحمن الرّحيم.

إنّ الكافرين هم الّذين غرّتهم الحياة الدّنيا والشّيطان الرّجيم، وهؤلاء لهم عذابٌ شديد. وإنّ الّذين لم تغرّهم الحياة الدّنيا والشّيطان الرّجيم هم المؤمنون الّذين يعملون الصّالحات، وهؤلاء لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير.

ويتجلّى بوضوحٍ اشتمال الآية الكريمة على معنيين اثنين.

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات : فلا تهلك نفسك حزناً على ضلالتهم وكفرهم بالله وتكذيبهم لك(١) والحسرة الغمّ على ما فات والنّدم عليه(٢) وحسرات مفعولٌ له يعنى : فلا تهلك نفسك للحسرات(٣).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٧٨.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حسر» ١/ ١٥٥.

(٣) الكشّاف ٢/ ٥٧١ وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ـ ١/ ٣٣٦.

أفمن زيّن الشّيطان الرّجيم له سوء عمله ونفسه الأمّارة بالسّوء وأعمى الله تعالى بصيرته فرأى عمله السّيء حسناً كمن هداه الله تعالى ونوّر بصيرته فرأى الحقّ حقّاً فاتّبعه والباطل باطلاً فاجتنبه. والجواب معروف. ليس الضّالّ كالمهتدى وإنّ الّذى آثر الضّلالة زاده الله تعالى عمًى إلى عماه. وإنّ الّذى آثر الهدى زاده الله تعالى هدىً وآتاه تقواه. وإنّ عليك يا محمّد البلاغ وحده، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تقتل نفسك يا محمّد غمّاً لعدم إيمانهم. إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بما يصنعون ببواعث الكفر ويجتهدون بنيّة الصّدّ عن سبيل الله تعالى فيجازيهم. وتتجلّى المعانى الثّنائيّة على النّحو التّالى.

هنالك الّذى زين له عمله السّيّء فرآه حسناً وهنالك الّذى لم يزيّن له عمله السّيّء، وهنالك الضّالّ والمهتدى. وعلى النّبيّ ﷺ ألا يهلك نفسه بباعث الحزن على الإعراض عنه، والله عليمٌ بما يصنع الظّالمون.

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

والله سبحانه وتعالى هو الّذى أرسل الرّياح المختلفة، فتثير سحاباً وتوجده بإذن الله تعالى، فساق الله تعالى ذلك السّحاب إلى بلد مجدبٍ ميّتٍ نباته فأنزل به الماء فأحيا به الأرض بعد موتها. كذلك النّشور يوم القيامة، وخروج الخلائق من القبور، وعودة الحياة إليهم، وتلبيتهم النّداء للحساب فالجزاء.

ويلفت الانتباه في الآية الكريمة أسلوب الالتفات. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى أرسل الرّياح المختلفة. والمعروف أنّ المطر ثمرة رياحٍ متعدّدة مختلفة. وهذه الرّياح لا تراها العين، إنّما ترى أثرها. وتنبيهاً على روعة إيجاد الرّياح السّحاب بإذن الله تعالى وإهاجتها له يأتى أسلوب الالتفات في القول: ﴿فتثير سحاباً﴾ ويدرك جمال معنى هذا القول من قُدِّر له أن يرى إنشاء الرّياح السّحاب بإذن الله

تعالى. إنّها صورةٌ من أجمل الصّور الطبيعيّة في هذا الوجود الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة.

ثمّ يعود السّياق إلى الزّمن الماضي، ولكن في أسلوب العظمة، تنبيهاً على القدرة المطلقة للذّات العليّة الّتي تسوق السّحاب وتنزل الغيث وتحيي الأرض الميتة. إنّ كلّ هذه المعاني خادمةٌ للقول: ﴿كذلك النّشور﴾ الّذي يومىء إلى قدرة الله تعالى على إعادة الحياة للخلائق يوم القيامة.

جاء في الحديث الصّحيح: كلّ ابن آدم يَبْلَى إلاّ عَجْب الذّنب، منه خُلِق ومنه يركّب(١).

ومن البيّن أنّ الماء ينزل من السّماء إلى الأرض، وأنّ الماء يحيي الأرض بعد موتها، وأنّ الحقّ جلّ وعلا يحيي الموتى يوم القيامة. وهكذا يكون في الآية الكريمة حديثٌ عن الأولى والآخرة. وتتجلّى المعاني الثّنائيّة على النّحو التّالي:

الله تعالى يرسل الرّياح فتثير سحابا، وتسوق سحاباً إلى بلدٍ ميّت. والله تعالى يحيي الأرض الميتة بالماء، وكذلك يحيي الموتى ويبعثهم يوم القيامة.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

من كان يريد العزّة في الدّنيا والآخرة فإنّ العزّة لله تعالى وحده لا شريك له في الدّنيا والآخرة. وإنّما تتحقّق العزّة للعبد بإذنه تعالى حينما يوفّق لعمل الصّالحات الّتي يريد بها وجه ربّه الأعلى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٢٣ والعَجْب مؤخّر كلّ شيء. وعَجْب الذّنب: الجزيء في أصل الذّنب عند رأس العُصْعُص.

إنّ الكلم الطّيّب من العبد من تسبيح وتكبير وتحميد وتهليل يصعد إليه عزّ وجلّ. روى الإمام أحمد عن النّعمان بن بشير أنّ رسول الله ﷺ قال: الّذين يَذْكُرون من جلال الله، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرض، لهنّ دويٌّ كدويّ النّحل، يذكّرون بصاحبهنّ. ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيءٌ يُذْكرُ به(١).

وإنّ العمل الصّالح الّذى أريد به وجه الله تعالى يرفعه عزّ وجلّ إليه ويقبله. ومعروفٌ أنّ الإيمان اعتقادٌ بالجَنان أي القلب، وقولٌ باللّسان، وعملٌ بالأركان.

أمّا الّذين يمكرون السّيّئات ويعملونها ويأتون المنكرات ويرتكبون القبائح فإنّ لهم عذاباً شديداً في الآخرة، وربّما أضيف إليه خزي الدّنيا. ومكر أولئك هو يبور وعمل هؤلاء المشركين هو الّذى يبطل ويفسد. وتتجلّى المعانى الثّنائيّة على النحو التالى. من كان من البشر يريد العزّة، فلله تعالى العزّة في الأولى والآخرة. والكلم الطيّب يصعد إلى الله تعالى، والعمل الصّالح يقبله عزّ وجلّ. والّذين يمكرون السّيّئات لهم عذابٌ شديد في الآخرة، ومكرهم في الحياة الدّنيا خاسر.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

والله سبحانه وتعالى خلقكم أيّها النّاس من تراب في هيئة أبيكم آدم عليه السّلام، ثمّ من نطفة الرّجل والمرأة، الذّكر والأنثى، والمراد ذرّيّة آدم عليه السّلام ونسله. فالله سبحانه وتعالى جعل نسل آدم عليه السّلام من سلالة من ماء مهين ومن ماء صاف يخرج من صلب الرّجل كي يستقرّ في رحم المرأة. ثمّ جعل الله تعالى النّاس أزواجاً، ذكراً وأنثى.

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٤.

وما تحمل من أنثى من بني آدم ولا تضع ذات حملٍ حملها إلاّ بعلمه جلّ وعلا. وما يُعَمَّرُ من شخصٍ معمَّرٍ يطول عمره، ولا يُنْقَص من عمر شخصٍ آخر إلاّ في كتابٍ هو اللّوح المحفوظ. إنّ كلّ ذلك يسيرٌ على الله تعالى، الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً، والّذى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وهكذا خلقنا الله تعالى من ترابٍ وماء، وجعلنا ذكوراً وإناثاً، وثمّة الحمل والوضع، وطول العمر وقصره. إنّنا في الآية الكريمة أمام مجموعةٍ من المعانى الثّنائيّة الّتى يربط بينها التّضادّ غالبا. والآية الكريمة تتألّف من أربع جمل، كلّ جملتين مترابطتان. فثمّة الخلق من التّراب ومن النّطفة وثمّة الزّوجان وثمّة الأنثى الّتى تحمل وتضع. وثمّة المعمَّر الّذى يُنْقَص من عمره. إنّ كتابة كلّ ذلك يسيرٌ على الله تعالى.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

هذا عذب : العذب من الشّراب والطّعام: كلّ مستساغ. والعذب: الماء الطّيّب(١).

فرات : الفرات الشّديد العذوبة(٢) وأعذب العذب(٣).

سائغ شرابه : ساغ الشّراب في الحَلْق سَهُل انحداره(٤) وشرابه بمعنى

---

(١) لسان العرب : «عذب».

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : سساغ» ١/ ٣٢٨.

شـــــربه(١).

وهذا مِلْح : المِلْح الماء الّذى تغيّر طعمه التّغيّر المعروف(٢).

أجاج : الأجاج المرّ وهو أشدّ المياه ملوحة(٣).

لحماً طرياً : أي غضّاً جديدا مِنَ الطَّراء والطَّراوة(٤) هو السّمك(٥).

وتستخرجون حليةً تلبسونها : اللّؤلؤ والمرجان(٦).

وترى الفلك : السّفن(٧).

فيه مواخر : في تلك البحار مـواخر تمخر الماء بصدورها، وذلك خرقها إيّاه إذا مرّت. واحدتها ماخرة. وشقّها إيّاه بصدورها(٨).

ومـا يستـوى البحـران في الصّفـات بإذن الله تعـالى وفي الدّور المنوط بكلٍّ منهما، هذا مـاءٌ عذبٌ حلوٌ شديد العذوبة والحلاوة سـائغٌ شُرْبه، سهلٌ في الحلق انحداره، وهذا ماءٌ مِلحٌ مـرٌّ وهو أشدّ المياه ملوحة. ومن كلٍّ من البـحرين تأكلون لحماً طرياً غضّاً جديداً هو السّمك، وتستخـرجون حليةً تلبسونها، وزينةً يتزيّن بها نسـاؤكم. قال تعـالى(٩) : ﴿يَخْـرُجُ منهمـا اللّؤلؤ والمَرْجـان. فـبأيّ آلاء ربّكمـا تكذّبان﴾ وترى أيّهـا الإنسان السّـفن في ذلك الماء شاقّـات بصدورها عـباب الماء، لتبـتغوا من فـضل الله تعالى بالتّجـارة والصّيد وطلب الرّزق، ولعـلّكم أيّها النّاس تشكرون لله تعالى نعمه العظيمة عليكم وآلاءه الجسيمة.

---

(١) الجـــلالين.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ملح» ٢/ ٦١٠.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «طرى» ٢/ ٣٩٦.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٢..

(٦) الجلالين وتفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٢. وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٦.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٢.

(٨) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٢.

(٩) سورة الرّحمن ٢٢و٢٣.

ويتجلّى بوضوح ثنائيّة المعاني في الآية الكريمة. فثمّة بحران اثنان أو ماءان. هذا عذبٌ شديد الحلاوة وهذا ملحٌ شديد الملوحة، هذا سائغٌ شربه وهذا متعذّرٌ شربه. ومن كلٍّ من البحرين نأكل اللّحم الطّريّ ونستخرج الحلية الّتي نلبس. والسّفن تشقّ الماء بصدورها لنبتغي من فضل الله تعالى، ولنشكر له عزّ وجلّ نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة علينا.

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى
لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى : لوقتٍ معلوم(١) وحَدٍّ لا يقصر دونه ولا يتعدّاه(٢) أي إلى يوم القيامة(٣).

قطمير : اللّفافة الّتي تكون على نواة التّمرة(٤).

يدخل الله سبحانه وتعالى اللّيل في النّهار فيقصر اللّيل ويطول النّهار صيفا، ويدخل النّهار في اللّيل فيقصر النّهار ويطول اللّيل شتاءً، وسخّر الشّمس والقمر كلٌّ يجري في فلكه الّذي جعله الله تعالى له إلى الأجل المسمّى والموعد المضروب، وهو يوم القيامة الّذي يضطرب فيه بإذن الله تعالى نظام الكون وتبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات غير السّماوات.

إنّ الّذي يفعل كلّ ذلك بكلّ اقتدارٍ هو الله تعالى المستحقّ أن يفرد بالعبادة

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٨٢.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٨٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٧ والجلالين.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٧ وانظر تفسير الطّبري ٢٢/ ٨٢ و٨٣ ـ

وحده، هو ربّكم أيّها النّاس ومربّيكم بنعمه وآلائه، له وحده دون سواه المُلك. أمّا الّذين تدعون من دونه أيّها المشركون وتشركونه مع الله تعالى في العبادة من أوثان وأصنام، وبعضها على صورة من تزعمون من الملائكة، فإنّهم لا يملكون في هذا الكون الفسيح الغشاء الّذى يكون على نواة التّمرة وما أهونه.

ونتبيّن في الآية الكريمة مجموعةً من المعانى الثّنائيّة، فثّمة اللّيل والنّهار، واللّيل يدخل في النّهار فيطول النّهار، والنّهار يدخل في اللّيل فيطول اللّيل، وثمّة الشّمس والقمر، وكلٌّ منهما يجرى في خطّ سيره المرسوم له إلى أجلٍ مسمىً وموعدٍ مضروب هو يوم القيامة. والله تعالى مالك كلّ شيء، والآلهة المزعومة ما تملك من قطمير.

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

ولا ينبّئك مثل خبير : ولا يخبرك يا محمّد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمرها وأمر عبدتها يوم القيامة من تبرّئها منهم وكفرها بهم مثل ذى خبرة بأمرها وأمرهم. وذلك الخبير هو الله الّذى لا يخفى عليه شيءٌ كان أو يكون سبحانه(١).

إنّ هذه الآلهة المزعومة لا تسمع في الحياة الدّنيا دعاء عابديها، ولو سَمِعَتْ على سبيل الافتراض لا تستجيب دعاء من يدعوها ونداءه، لأنّ عجزها أصيل. وفي يوم القيامة تكفر تلك الآلهة بشرك عابديها وتتبرّأ منهم. وهكذا تخذل الآلهة المزعومة عابديها في الدّنيا والآخرة.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٣.

ولا ينبئك يا محمّد، ولا يحمل إليك أيّها الإنسان الخبر المهمّ الجديد المفيد مثل الخبير الّذى أحاط خبراً ببواطن الأمور، ومن باب أولى ظواهرها، وهو الله تعالى عالم الغيب والشّهادة الكبير المتعال.

(٢)

(الله تعالى هو الغنيّ الحميد، والرّسول ﷺ بشيرٌ ونذير، وثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين)

الآيات (١٥ ـ ٢٦)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

الحميد : المحمود على نعمه فإنّ كلّ نعمة بكم وبغيركم فمنه فله الحمد والشّكر بكلّ حال(١).

وما ذلك على الله بعزيز : وما إذهابكم والإتيان بخلقٍ سواكم على الله بشديد بل ذلك عليه يسيرٌ سهل(٢) وما هذا عليه بصعبٍ ولا ممتنع(٣).

يخاطب السّياق النّاس عموماً، المنحرفين عن سواء السّبيل خصوصاً ويقول لهم : يا إيّها النّاس أنتم الفقراء إلى الله تعالى المحتاجون إليه الّذين لا تستطيعون الاتّكال على أنفسكم بدونه طرفة عين. والله تعالى هو الغنىّ عنكم وعن كلّ من خلق وما خلق، لأنّه عزّ وجلّ حينما خلق الخلق لم يكن بباعث الحاجة إليهم، والله سبحانه وتعالى هو المحمود على نعمه الّتى شملت المؤمن والكافر، البرّ والفاجر. إنّ عليكم أيّها النّاس أن تبادلوا الإحسان بالإحسان وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة وبشكران النّعم. إنّ الله سبحانه وتعالى إن يشأ يذهبكم أيّها المنحرفون عن الصّراط المستقيم ويأت بآخرين لن يكونوا أمثالكم. إنّ ذلك ليس صعباً على الله تعالى ولا ممتنعاً ولكنّه سهلٌ يسيرٌ عليه جلّ وعلا.

ويصحّ أن نتبيّن المعاني الثّنائيّة في الآيات الكريمات على النّحو التّالى :

النّاس هم فقراء إلى الله تعالى والله عزّ وجل هو الغنيّ عن الخلق أجمعين.

والله تعالى هو المحمود على نعمه وفي كلّ الأحوال إن يشأ يذهب الكافرين

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٣.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٨.

كأمس الدّابر.

والله تعالى إن يشأ يأت بخلقٍ جديد وليس ذلك على الله تعالى بصعبٍ ولا مستحيل.

ويعمّق ثنائية المعانى الاسمان من أسماء الله تعالى الحُسْنَى في القول: ﴿والله هو الغنيّ الحميد﴾.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ
إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

وإن تدع مثقلةٌ إلى حِمْلها: وإن تدع نفسٌ مثقلةٌ من الذّنوب إلى حمل ذنوبها(١).

إنّما تنذر الّذين يخشون ربّهم بالغيب: إنّما تنذر يا محمّد الّذين يخافون عقاب الله يوم القيامة من غير معاينةٍ منهم لذلك(٢).

وأقاموا الصّلاة: وأدّوا الصّلاة المفروضة بحدودها(٣).

ومن تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه: ومن يتطهّر من دنس الكفر والذّنوب بالتّوبة إلى الله والإيمان به والعمل بطاعته فإنّما يتطهّر لنفسه وذلك أنّه يثيبها به رضا الله والفوز بجنانه والنّجاة من عقابه الّذى أعدّه لأهل الكفر به(٤).

تجمع الآية الكريمة بين الآخرة والأولى، وبين النّذارة والبشارة.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٤.

في يوم القيامة كلّ شخص مسئولٌ وَحْدَه عمّا عمل من خير أو شرّ. وبشأن المذنبين لا تحمل يوم القيامة نفسٌ مذنبة ذنب نفسٍ أخرى، لأنّ كلّ شخصٍ سوف يحاسب وَحْدَه وسوف يكون مسئولاً وَحْدَه عمّا قدّم وأخّر. وإن تَدْعُ يوم القيامة نفسٌ موقرةٌ بالذّنوب نفساً أخرى إلى حملها الثّقيل من الذّنوب كي تحمل عنها بعضه لا يُحْمَل من ذلك الحمل الثّقيل شيءٌ، ولو كان المدعوّ الابن أو الأبّ أو الأخ أو الزّوج ومن إليهم. إنّ لكلّ أمرئ يوم القيامة شأنه الخاصّ به الّذى يشغله عن الالتفات لغيره، ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه أو زوجه ومن إليهم.

وأنت يا محمّد تنذر النّاس أجمعين، لأنّك البشير والنّذير والسّراج المنير. وإنّما ينفع إنذارك أولئك الّذين يخشون ربّهم وما رأوه، لأنّ من نعوتهم الإيمان بما غاب عن أعينهم، إيماناً بك يا محمّد وتصديقاً بما أوحى الله تعالى إليك. والخشية مزيجٌ من الخوف والحبّ، أو هي خوفٌ يشوبه تعظيم. وأكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يُخْشى منه. ولذلك خُصّ العلماء بها في قوله[1] : ﴿إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماء﴾[2].

ومن نعوت الّذين انتفعوا من نِذارة النّبيّ ﷺ أنّهم يقيمون الصّلاة المفروضة بأركانها وواجباتها وسننها وسائر شروطها. ومعروفٌ أنّ إقام الصّلاة الرّكن الثّانى من أركان الإسلام، وأنّ إقام الصّلاة أهمّ الأركان بعد الشّهادتين في مجال العبادات البدنيّة، وأنّ إيتاء الزّكاة أهمّ الأركان في مجال العبادات الماليّة، وهو الرّكن الثّالث من أركان الإسلام.

وجرياً على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الصّلاة والزّكاة تجمع الآية الكريمة بينهما، باعتبار إيتاء الزّكاة نوعاً من أنواع تزكية النّفس بمعنى تطهيرها من الأدران. إنّ الّذين انتفعوا بإنذار المصطفى ﷺ بعد أن أعلنوا الشّهادتين، شهادة ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله أقاموا الصّلاة وزكّوا أنفسهم وطهّروها بمختلف الوسائل، وفي مقدّمتها دفع الزّكاة لمستحقّيها.

---

(١) سورة فاطر ٢٨.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خشى» ١/١٩٨.

والآية الكريمة تقرّر أنّ من تزكّى وتطهّر فإنّما يفعل ذلك لنفسه، لأنّ ثواب أعماله الصّالحة مدّخرٌ له كي يثاب عليه يوم القيامة، وذلك إثر الحياة الطّيّبة الّتي يحييه الله تعالى إيّاها في الدّنيا.

وإنّ التّذييل: ﴿وإلى الله المصير﴾ يشمل النّاس أجمعين، وفي مقدّمتهم المؤمنون المتّقون الّذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وسارعوا في الخيرات.

وهكذا تومىء الآية الكريمة في صدرها إلى يوم القيامة من زاوية الموقَرين بالذّنوب فعليهم أن يحذروا. كما تومىء في التّذييل إلى يوم القيامة من زاوية المؤمنين المتّقين في المقام الأوّل كي يستبقوا الخيرات.

وكأنّ الآية الكريمة بشأن المعاني الثّنائيّة تتحدّث في صدرها عن النّذارة وفي عجزها عن البشارة، وفي أثنائها عن الكافرين المثقلين بالذّنوب الّتي يحملونها وحدهم، كما تتحدّث عن المؤمنين المتّقين الّذين كثرت حسناتهم وسيثابون عليها.

ويصحّ أن نتبيّن المعاني الثّنائيّة على النحو التالي.

إنّ ثمّة النّفس المذنبة الّتي لا تستطيع حمل ذنب النّفس المذنبة الأخرى. وإنّ النّفس المثقلة بالذّنوب لا تستجيب لندائها واستغاثتها واستعانتها أيّ نفسٍ أخرى ولو كانت نفس شخصٍ قريب للنّفس المستغيثة. والنّبيّ ﷺ ينفع إنذاره الّذين يخشون ربّهم بالغيب وأقاموا الصّلاة. ومن تطهّر فله ثواب عمله وإلى الله تعالى مصير الخلائق أجمعين.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

ولا الظّلّ ولا الحرور : الجنّة والنّار [1] وقال الزّجّاج : معناه لا يستوي أصحاب الحقّ الّذين هم في ظلٍّ من الحقّ، وأصحاب الباطل الّذين هم في حَرورٍ أي حرٍّ دائمٍ ليلاً ونهارا [2].

تقارن الآيات الكريمات بين نعوت المؤمنين وصفات الكافرين، وتسلّي المصطفى ﷺ وتسرّي عنه، وبذلك هي تؤكّد النّهي له عليه الصّلاة والسّلام في الآية الكريمة الثّامنة من السّورة الكريمة عن أن تذهب نفسه عليه الصّلاة والسّلام حسراتٍ على كافري قومه وأن يهلك نفسه حَزَناً لإعراضهم عنه والصدّ عن سبيل الله تعالى.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّه لا يستوي الأعمى والبصير. إنّه في مجال المحسوسات لا يستوي من سلبه الله تعالى نعمة البصر ومن أنعم عليه بهذه النّعمة. وإنّ الشّيء ذاته يقال في المعنويّات، بل إنّه آكد هنا وأرسخ. والمراد بالأعمى في المعنويّات أعمى البصيرة الكافر، والمراد بالبصير صاحب البصيرة النّيّرة المؤمن. وهذا المعنى الأخير مراد الآية الكريمة. وبذلك تتحدّث الآية الكريمة عن الإنسان الكافر والمؤمن.

---

(١) انظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٣٦٩ وتفسير الطّبري ٢٢/ ٨٤ وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٩ ولسان العرب : «حرر» والجلالين.

(٢) لسان العرب : «حرر».

وتقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّه لا تستوى الظّلمات والنّور. إنّه في مجال المحسوسات لا تستوى ظلمات اللّيل البهيم ونور النّهار المشرق. وإنّ الشّيء ذاته يقال في المعنويّات، بل إنّه آكد هنا وأرسخ. والمراد بالظّلمات في المعنويّات ظلمات الشّرك والشّكوك. والمراد بالنّور نور الإسلام واليقين. وهذا المعنى الأخير مراد الآية الكريمة.

وبذلك تتحدّث الآية الكريمة عن صفة هذا الإنسان من زوايتي الكفر والإيمان.

وتقرّر الآية الكريمة الثّالثة أنّه لا يستوى الظّلّ والحرور. إنّه في مجال المحسوسات لا يستوى المكان الّذى فيه الظّلّ بسبب وجود الحجاب الّذى يمنع أشعّة الشّمس من النّفاذ، والمكان الّذى فيه الحرارة الشّديدة والارتفاع، بسبب أشعّة الشّمس الحارّة، وريح السّموم اللّافحة. وإنّ الشّيء ذاته يقال بشأن الآخرة. إنّ الجنّة بظلّها الممدود ونعيمها غير المحدود، لا تستوى بالنّار ذات الحرّ الشّديد والعذاب الأكيد. وهذا المعنى الأخير مراد الآية الكريمة. والله تعالى أعلم.

وبذلك تتحدّث الآية الكريمة عن مصير الإنسان المؤمن والكافر.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تقدّم في الذّكر الجنّة على النّار دليلاً على رفيع منزلة أصحاب الجنّة عند الله تعالى وهوان الآخرين.

وتقرّر الآية الكريمة الرّابعة أنّه لا يستوى الأحياء والأموات. إنّه في مجال المحسوسات لا يستوى الأحياء والأموات. وإنّ الشّيء ذاته يقال في المعنويّات. بل إنّه آكد هنا وأرسخ. والمراد بالأحياء الّذين أحياهم الله تعالى بالإيمان، وشرح صدورهم للإسلام، وجمّلهم بالتّقوى. والمراد بالأموات الكافرون الّذين لم يحقّقوا الهدف الّذى خلقهم الله تعالى من أجله، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، فأصبحوا من أجل ذلك أشبه بالأموات سكّان القبور، الّذين يعيشون في ظلماتهم المطبقة، منعزلين تماماً عن كلّ أنواع الحياة خارج القبر وحركاتها وإيجابيّاتها. وهذا المعنى الأخير مراد الآية الكريمة.

وبذلك تعمّق الاية الكريمة معاني الآيات الكريمات السّابقات مع الاتّسام

بشمول كامل الحياة لكلٍّ من المؤمن والكافر. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تقدّم في الذّكر كسابقتها الأحياء بمعنى المؤمنين على الأموات بمعنى الكافرين للحكمة ذاتها، وهي رفيع منزلة المؤمنين عند الله تعالى وهوان الكافرين.

ودليلاً على أنّ المراد بالأحياء المؤمنون وبالأموات الكافرون تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يُسْمِع سماع قبولٍ من يشاء هدايته بمعنى توفيقه، وأنّ محمّداً ﷺ لا يُسْمِع سماع قبول الكافرين الّذين عُبّر عنهم بأنّهم سكّان القبور. ولا يسكن القبور إلاّ الموتى. والمراد بهم الكافرون كما تبيّن.

وإنّ القول : ﴿إنّ الله يُسْمع من يشاء﴾ يشير إلى هُدَى التّوفيق الّذى يستطيعه الله تعالى وحده دون سواه. وإلى هذا النّوع من الهدى أشار مِثْلُ قوله تعالى(١) : ﴿إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ وإنّ القول : ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ يؤكدّ المعنى السّابق. إنّ محمّداً ﷺ لا يستطيع أن يَفْرِض هدى التّوفيق على الكافرين، لأنّ الّذى يملك ذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له.

بقي علينا أن نشير إلى أنّ هُدَى الدّلالة والإرشاد يستطيعه كلّ الدّعاة بإذن الله تعالى، ابتداءً بالنّبيّين والمرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. وإلى هذا النّوع من الهدى أشار مثل قوله تعالى خطاباً للمصطفى ﷺ في سورة الشّورى(٢) : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا. وإنّك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم. صراط الله الّذى له ما في السّماوات وما في الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

وتقرّر الآية الكريمة الخامسة أنّ محمّداً ﷺ ما هو إلاّ نذيرٌ مبين بين يدي عذابٍ شديد للكافرين والعاصين يوم القامة.

وتقرّر الآية الكريمة السّادسة أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل محمّداً ﷺ بدين

---

(١) سورة القصص ٥٦.

(٢) الآية ٥٢ و ٥٣.

الحقّ بشيراً لمن آمن وعمل صالحاً بجنّات النّعيم، ونذيراً لمن كفر وعمل سيّئاً بنار الجحيم.

كما تقرّر الآية الكريمة أنّه ما من أمّة من الأمم السّابقة إلاّ سلف فيها نذير، نبيٌّ أو رسول، فليس العربُ نواةُ الإسلام الأولى بِدْعاً من الأمم وليس محمّدٌ ﷺ بدعاً من الرّسل.

وحينما نجمع معاني الآيتين الكريمتين نستطيع أن نتبيّن المعاني الثّنائية. إنّ محمّداً ﷺ بشيرٌ ونذير، وما محمّدٌ ﷺ إلاّ نذير، وما من أمّة مضت إلاّ سلف فيها نذير.

في ضوء ما سبق نستطيع أن نذهب إلى أنّ المعاني الثّنائيّة في الآيات الكريمات على النّحو التّالي.

الأعمى والبصير. الظّلمات والنّور. الظّلّ والحرور. الأحياء والأموات. الله تعالى يُسْمع من يشاء وما يستطيع محمّدٌ ﷺ أن يسمع من في القبور. ما محمّدٌ إلاّ نذير، وما من أمّة إلاّ سلف فيها نذير. محمّد ﷺ الّذى أرسله الله تعالى بالحقّ بشيرٌ ونذير.

ويلاحظ أنّ الآيات الكريمات يتّضح فيها كلّ من الطباق والمقابلة والاستعارة.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ
ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

بالبيّنات : بالمعجزات الباهرات والأدلّة القاطعات(١) .

وبالزبّر : أي الكتب(٢) كصحف إبراهيم(٣) .

وبالكتاب المنير : لمن تأمّله وتدبّره أنّه الحقّ(٤) وهو الكتاب الواضح البيّن(٥) كالتّوراة والإنجيل(٦) .

فكيف كان نكير : فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيماً شديداً بليغاً(٧) بالعقوبة والإهلاك(٨) .

الآيتان الكريمتان في تسلية المصطفى ﷺ وسبق أن تبيّنّا التّسلية في الآيات الكريمات الرّابعة، والثّامنة عشرة، والثّانية والعشرين، والثّالثة والعشرين.

إنّ كفّار مكّة إن يكذّبوك يا محمّد فقد كذّب الّذين من قبلهم من الأمم، جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، وبفحوى الكتب السّماويّة، وبالكتاب المنير الواضح البيّن لمن تأمّله وتدبّره، الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم. وأنت يا محمّد جئت قومك أيضاً بالمعجزات الواضحات، والآيات الباهرات، وبفحوى

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٩.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٦.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٩.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٩.

(٨) الجلالين.

الكتب السّماويّة السّابقة وما توزّع فيها من خير، وبالكتاب المنير، والقرآن الكريم، الكتاب العزيز، المصدّق للكتب السّماوية السّابقة، المهيمن عليها، الشّاهد بصحّتها فيما وافقته، وبتحريفها فيما خالفته. لقد كذّبك قومك يا محمّد كما كذّب الأقوام السّابقون رسل الله تعالى إليهم والنّبيّين. فلست يا محمّد بدعاً من النّبيّين والمرسلين، فاصبر كما صبروا، وأنت زعيم أولى العزم من الرّسل الخمسة.

ثمّ أَخَذْتُ الكافرين السّابقين بأليم العذاب فأهلكتهم، فكيف رأيت يا محمّد إنكاري الشّديد عليهم وأخذي الأكيد لهم. وإنّ قومك يا محمّد يوشك أن يكون أخذي لهم كأخذي السّابقين إن لم يستفيدوا من إمهالي لهم وإن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً.

ويتّضح في الآيتين الكريمتين المعاني الثّنائيّة. لقد كذّب السّابقون رسلهم كما كذّب أهل مكّة محمّداً ﷺ رغم المعجزات الباهرات، وفحوى الكتب السّماوية، والكتاب المنير الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم، ويبين عن معناه ويكشف عن فحواه. وإنّ الله سبحانه وتعالى أخذ الكافرين السّابقين بالعذاب الأكيد، وسيكون هذا مصير كفّار مكّة إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً.

(٣)

(اختلاف ألوان المخلوقات من دلائل قدرة الله تعالى، وثواب تلاوة القرآن الكريم والاهتداء بنوره)

الآيات (٢٧ ـ ٣٥)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

ومن الجبال جُدَد: من الجبال جار ومجرور خبر مقدّم. جدد: مبتدأ مؤخّر(١) وجُدَد جمع جُدّة بضمّ الجيم بمعنى الطّريقة والجمع طرائق. والطّريقة بمعنى الطّريق والجمع طُرُق(٢) أي طرائق تخالف لون الجبل. ومنه قولهم: ركب فلانٌ جُدّةً من الأمر إذا رأى فيه رأياً. قال الفرّاء: الجُدَد الخطط والطُّرُق تكون في الجبال خِططٌ بيضٌ وسودٌ وحمر كالطّرق، واحداها جُدّة(٣) وكالعروق(٤).

وغرابيب سود: قيل جمع غِرْبيب وهو المُشْبه للغراب في السّواد كقولك أسود كحلَك الغراب(٥) والحلَكُ، بفتح اللّام: شدّة السّواد(٦) وغرابيب سود من المقدّم الّذي هو بمعنى التّأخير، وذلك أنّ العرب تقول: هو أسود غِرْبيب إذا

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٤٧.

(٢) انظر لسان العرب: «جدد».

(٣) لسان العرب: «جدد».

(٤) انظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٣٦٩.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «غرب» ٢/ ٤٦٦.

(٦) المعجم الوسيط: «حلك».

وصفوه بشدّة السّواد. وجعل السّواد ههنا صفةً للغرابيب[1].

والدّوابّ : جمع دابّة، وهي كلّ ما يدبّ على الأرض. وقد غلب على ما يُرْكب من الحيوان[2] وعلى كلّ ما دبّ على قوائم[3] والدَّبّ والدَّبيب مشيٌ خفيف[4].

والأنعام : الإبل والبقر والغنم[5] من باب عطف الخاصّ على العامّ[6].

إنما يخشى الله من عباده العلماء : الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يُخْشَى منه، ولذلك خُصّ العلماءُ بها في الآية الكريمة[7] قال ابن عبّاس : الّذي يعلمون أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير[8].

ألم تر يا محمّد ويا أيّها الإنسان أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل من السّماء ماءً واحداً سقى به كلَّ الشّجر فأخرجنا به من تلك الشّجرات ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وغير ذلك. وفي إمكان الواحد منّا أن يستعرض مجموعةً من الفواكه مثلاً كي تتأكدّ له هذه الحقيقة، بل إنّ ثمرةً واحدةً كالتّفاح مثلاً يكون لها أكثر من لونٍ منفردةً ومن باب أَوْلَى متفرّقة.

ومن الجبال طرقٌ وعروقٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها في نسبة الحُمْرة وغيرها، وسودٌ شديدة السّواد فهي في لون الغِرْبان المشهورة بسوادها. وهذه الطّرق والعروق في الجبال تختلف ألوانها عن ألوان الجبال. وهذه الجبال لا تكاد تُحْصَى ألوانها، كما أنّ الثّمرات لا تُحْصى ألوانها أيضا.

(١) تفسير الطّبري ٢٢/٨٦.

(٢) المعجم الوسيط «دبّ».

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٠.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «دب» ١/ ٢١٩.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : « نعم » ٢/ ٦٤٥.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٠.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «خشي» ١/ ١٩٨.

(٨) تفسير الطّبري ٢٢/٨٧.

وكما اختلفت ألوان الثّمرات والجبال بقدرة الله تعالى اختلفت ألوان النّاس والدّوابّ الّتى تدبّ على الأرض بقوائمها وتحمل النّاس والأثقال، والأنعام من الإبل والبقر والغنم. وواضحٌ عناية الآيتين الكريمتين بالألوان. والألوان ضربٌ من الجمال والزّينة. وهكذا تُعْنى الآيتان الكريمتان بالجمال والزّينة.

إنّ الّذين يتدبّرون مخلوقات الله تعالى ويتأمّلون ألوانها المختلفة الخلاّبة يتبيّنون شيئاً من قدرة الله تعالى المطلقة على أن يخلق ما يشاء ويختار، فتزداد قلوبهم خشيةً لله تعالى، ويكون حظّها موفوراً من الحبّ لله تعالى والخوف منه عزّ وجلّ، ذلك الخوف الّذى يشوبه التّعظيم، لأنّه ينطلق من العلم بالله تعالى الكبير المتعال.

إنّ الله تعالى عزيزٌ في ملكه، فعّال لما يريد، غفورٌ لمن استغفر الله تعالى من ذنبه وتاب وأناب.

ويصحّ أن نتبيّن المعانى الثّانيّة على النّحو التّالى.

أنزل الله تعالى من السّماء ماءً فأخرج به ثمرات مختلفة الألوان. ويلحق بالألوان الأشكال والرّوائح والطّعوم.

وثمّة الجبال والعروق فيها، وكلٌّ منها مختلفة الألوان.

وثمّة النّاس والدّوابّ والأنعام وهي مختلفة الألوان.

وثمّة خشية الله تعالى الّتي تكون لدى العلماء بأكثر من غيرهم.

والله تعالى عزيزٌ غفور.

ثمّ يتحدّث السّياق عن بعض نعوت هؤلاء العلماء وثوابهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يرجون تجارةً لن تبور : يرجـون بفعلهم ذلك تجارةً لن تكسُد ولن تهلَك من قولهم بارت السّوق إذا كسَدَتْ وبار الطّعام(١) .

إنّ الّذين يقرأون القرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعـالى إلى حبيبه ﷺ ويتلونه حقّ تلاوته، ويقيـمون الصّلاة المفـروضة ويحافظون عـليها ويداومـون على تطبيق أركانها وواجبـاتها وسننها وسائر شروطها، وينفقـون ممّا رزقهم الله تعالى سراً في هيئة الصّدقات مثلاً، وعلانيةً في هيـئة الزّكوات مثلاً، يرجون عند الله تعالى تجارةً رابحةً دائماً، لا تكسُد ولا تَخْسَر.

ويلاحظ مجيء جملة : ﴿يتلون﴾ في صيغة الزّمن المضارع الدّال على التّجدّد والاستـمرار. وهذه هي الصّـفة الغالبـة على القرّاء بمنّ الله تعـالى وفضله. كـما يلاحظ مجيء جـملتى : ﴿وأقاموا الصّلاة وأنـفقوا ممّا رزقناهم سراً وعـلانية﴾ في صيغة الزّمن الماضى دليلاً على أنّ هذه هي صفتهم وذلك هو ديدنهم. كما يلاحظ مجيء جملة : ﴿يرجون﴾ في صيغـة الزّمن المضارع للحكمة السّابقة ذاتها. وانظر وراء ذلك إلى الجمال الصّوتيّ في هاتين الجملتين : ﴿وأقاموا﴾ : ﴿وأنفقوا﴾ وإلى الجمال الصّوتيّ كذلك في هاتين الجملتين : ﴿يتلون﴾ ﴿يرجون تجارةً لن تبور﴾.

وهؤلاء الّذين يرجون عند الله تعـالى تجارةً لن تبور ولن تخسـر يفعلون كلّ هذه الصّالحات ليوفـيّهم عزّ وجلّ يوم القيامة ثواب أعـمالهم، ويزيدهم من فضله الّذى ليس له حـدود وليس عليـه من مـزيد. إنّه جلّ وعلا غـفـورٌ لذنوب الّذين

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٨٧. وتهلك بكسر اللّام وفتحها.

يتوبون توبةً نصوحا، شكورٌ لهم أعمالهم الصّالحة الّتى يجزل لهم المثوبة عليها.

وواضحٌ أنّنا بصدد جملتين اثنتين فعليّتين منسجمتين صوتيّاً، وبصدد اسمين من الأسماء الحُسنَى للذّات العليّة.

وهكذا تتجلّى المعانى الثّنائيّة بوضوحٍ تامّ، وقد عمّق من جلال المعانى جمال المبانى على النّحو الّذى تبيّن.

وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾

هو الحقّ : عليك وعلى أمّتك أن تعمل به وتتّبع ما فيه(١).

مصدّقاً لما بين يديه : أي من الكتب المتقدّمة يصدّقها، كما شهدت له بالتّنويه، وأنّه منزلٌ من ربّ العالمين(٢).

والّذى أوحينا إليك يا محمّد من الكتاب العزيز والقرآن المجيد هو الحقّ من الله تعالى الّذى لا شكّ فيه ولا ارتياب، فعليك يا محمّد وعلى أمّتك أن تهتدي بهداه وتتقيّد بخُطاه. وهذا الكتاب العزيز مصدّقٌ لما سبقه من كتبٍ سماويّة نصّ على أربعة منها هي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. إنّ الله سبحانه وتعالى بعباده خبيرٌ ببواطنهم وأعلم حيث يجعل رسالته ويضع أمانته، بصيرٌ بظواهر الأمور قد أحاط بكلّ شيء علماً. إنّ الله سبحانه وتعالى يستوى عنده علم كلٍّ من الظّاهر والباطن.

وبالإضافة إلى الاسمين من الأسماء الحسنى للذّات العليّة، الخبير والبصير، يمكن أن نتبيّن ثنائيّة المعنى في صدر الآية الكريمة على النّحو التّالى. إنّ الكتاب العزيز الموحى به من ربّ العالمين هو الحقّ في ذاته من ناحية، وهو المصدّق لما بسبقه من كتبٍ سماويّةٍ سابقة من ناحيةٍ أخرى.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٢.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ
الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ۖ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

ثمّ أورثنا : ثمّ أعطينا(١) والوِراثة والإرث انتقال قُنْية إليك عن غيرك من غير عَقْد ولا ما يجرى مجرى العقد(٢) والوراثة الحقيقيّة هي أن يحصل للإنسان شيءٌ لا يكون عليه فيه تَبِعة ولا عليه محاسبة(٣) .

الكتاب : القرآن(٤) .

اصطفينا من عبادنا : اخترناهم لطاعتنا واجتبيناهم(٥) وهم أمّة محمّد ﷺ(٦) .

فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات : عن ابن عبّاس : فظالمهم يُغْفَر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيرا، وسابقهم يدخل الجنّة بغير

(١) الجلالين.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ورث» ٢/ ٦٧٢.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ورث» ٢/ ٦٧٣.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٠.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٨٨ وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٢.

حساب[1] وعن عبد الله بن مسعود أنّه قال : هذه الأمّة ثلاثة أثلاث يوم القيامة، ثلثٌ يدخلون الجنّة بغير حساب، وثلثٌ يحاسبون حساباً يسيراً، وثلثٌ يجيئون بذنوبٍ عظام حتّى يقول : ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة : هؤلاء جاءوا بذنوبٍ عظام إلاّ أنّهم لم يشركوا بك فيقول الربّ : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي. وتلا عبد الله هذه الآية[2] وقال ابن عبّاس : السّابق بالخيرات يدخل الجنّة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنّة برحمة الله، والظّالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنّة بشفاعة محمّد ﷺ[3] .

أساور : الإسوار لغةٌ في السِّوار بكسر السّين وضمّها : الحلية الّتي تُلْبَس في المِعْصَم، والجمع أَسْوِرة، وجمع الجمع أساور وأساورة[4] والمعصم موضع السّوار من السّاعد. والسّاعد ما بين المَرْفَق والكفّ. والمِرْفق : المَوصل بين السّاعد والعضد[5] .

ولؤلؤا : مفعولٌ به لفعلٍ محذوف تقديره يلبسون[6] .

الحَزَن : الحُزْن والحَزَن خشونةٌ في الأرض وخشونةٌ في النّفس لما يحصل فيه من الغمّ ويضادّه الفرح[7] والحزن شعورٌ بالألم لضياع مأمولٍ وفقد محبوبٍ قرب العهد بضياعه وفقده[8] والحزن : الخوف من المحذور والمراد هموم الدّنيا

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٨٨ وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٢.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٨٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٢.

(٤) المعجم الوسيط : «سور».

(٥) انظر ـ مثلاً ـ المعجم الوسيط : «عصم» و «سعد» و : «رفق».

(٦) انظر لسان العرب : «حلا» في تفسير الجزئيّة الكريمة، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥١ وتفسير الطّبري ٢٢/ ٦١.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حزن» ١/ ١٥١.

(٨) تأمّلات في سورة آل عمران للمؤلّف ٤٥١.

والآخـــرة[1] .

شكور : شكورٌ لهم على طاعتهم إيّاه وصالح ما قدّموا في الدّنيا من الأعمال[2] .

الّذى أحلّنا دار المقامة : أي ربّنا الّذى أنزلنا هذه الدّار، يعنون الجنّة. فدار المقامة دار الإقامة الّتى لا نقلة[3] معها عنها ولا تحوّل. والميم إذا ضمّت من المقامة فهي من الإقامة. فإذا فتحت فهي من المجلس والمكان الّذى يقام فيه[4] .

لا يمسّنا فيها نصب : لا يصيبنا فيها تعبٌ ولا وجع[5] .

ولا يمسّنا فيها لغوب : عناءٌ وإعياء[6] .

ثمّ أعطى الله تعالى الكتاب العزيز والقرآن المجيد الّذين اصطفاهم عزّ وجلّ وانتقاهم من عباده وخصّ به أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ. ولأتباع محمّد ﷺ ثلاثة مواقف من القرآن الكريم، أَوْ هُمْ ثلاث فئات. فمنهم ظالمٌ لنفسه غلبت سيّئاته حسناته، ومنهم مقتصدٌ غلبت حسناته سيّئاته، ومنهم المقرّبون السّابقون المسارعون في الخيرات. أمّا السّابقون فإنّهم بفضل الله يدخلون الجنّة بغير حساب، فقد تفضّل الله تعالى عليهم بقبول أعمالهم الصّالحة وتغمّدهم برحمته عزّ وجلّ. ثبت في الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال : لن يُدْخِل أحداً منكم عَمَلُه الجنّة. قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلاّ أن يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضل[7] إنّ هؤلاء السّابقين بالخيرات قد تمكّنوا بإذن الله تعالى وعونه من عمل الخيرات، فللّه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٧.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩١.

(٣) النّقلة بفتح النّون المرّة من نقل الشّيء نقلاً بمعنى حوّله من موضعٍ إلى موضع. وبضمّ النّون اسمٌ بمعنى الانتقال.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢ وانظر لسان العرب : «نصب».

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢ وانظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٣٧٠ ولسان العرب : «لغب».

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٣٧.

تعالى الحمد والمنّة أوّلاً وآخرا.

وأمّا المقتصدون الّذين عملوا الحسنات وغلبت سيّئاتهم فإنّهم يحاسبهم عزّ وجلّ حساباً يسيراً ويدخلون الجنّة بفضلٍ من الله تعالى ونعمة.

وأمّا الظّالمون الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ولكن غلبت سيّئاتهم ومع ذلك هم لم يشركوا مع الله تعالى سواه فإنّ هؤلاء يدخلون الجنّة برحمة الله تعالى الواسعة.

ويصحّ أن يكون القول: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ متعلّقاً بالسّابقين بالخيرات بإذن الله تعالى. وأيّ فضلٍ وراء عون الله تعالى للسّابقين إلى الخيرات وفضله عليهم بتمكينهم من المسارعة في عمل الصّالحات وقبولها منهم.

ووراء ذلك فإنّ كلّ الفئات الثّلاث من أمّة محمّد ﷺ يدخلون بفضل الله تعالى يوم القيامة جنّات إقامةٍ دائمةٍ وخلودٍ سرمديّ. وهم في الجنّة يحلّون من أساور من ذهبٍ في أيديهم ويلبسون لؤلؤاً. والذّهب واللّؤلؤ من أصناف الزّينة والحليّ المحرّمة على رجال الأمّة المحمّديّة في الحياة الدّنيا. أمّا في الآخرة فإنّه حلالٌ لهم بفضل الله تعالى ما كان محرّماً عليهم في الحياة الدّنيا من لباسٍ وزينة. إنّهم يلبسون في الجنّة الحرير، والحرير من الثّياب ما رقّ[1] وصُنِع من الخيط الدّقيق الّذى تفرزه دودة القزّ[2].

وبعد أن استقرّت أمّة محمّد لله في الجنّة بفئاتها الثّلاث بفضل الله ورحمته قالوا الحمد لله والثّناء كلّه لله تعالى الّذى أذهب عنّا هموم الدّنيا والآخرة بباعث الخوف من دخول النّار خشيةً من الله تعالى ألاّ يتفضّل بقبول أعمالنا الصّالحة الّتى أردنا بها وجهه الكريم عزّ وجلّ. إنّ ربّنا جلّ وعلا لغفورٌ لسيّئاتنا الّتى بدّلها بفضله حسنات لنا، شكورٌ على طاعته وعمل الصّالحات. إنّ الله تعالى أحلّنا دار المقامة، وأسكننا دار الإقامة الدّائمة في الجنّة من فضله ورحمته. ومن فضله جلّ وعلا كذلك لا يمسّنا في الجنّة نصبٌ ولا تعب، ولا ينالنا فيها عناءٌ ولا إعياء.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «حر» ١/١٤٦.

(٢) المعجم الوسيط: «حر».

ويمكن أن نتبيّن المعاني الثّنائية على النّحو التّالي :

: ﴿ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا﴾ فالله تعالى أعطى الكتاب العزيز أمّة محمّد لله المصطفاة.

: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد﴾.

: ﴿ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله﴾ إنّ من هذا الفريق سبقا إلى الخيرات، وهذا السّبق تمّ بعون الله تعالى.

: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ إنّ ثمّة فضلاً من الله تعالى، وهذا الفضل كبيرٌ على السّابقين بالخيرات وعظيمٌ من الله تعالى.

: ﴿جنّات عدن يدخلونها﴾.

: ﴿يحلّون فيها من أساور من ذهب لؤلؤاً﴾ إنّ الحلية نوعان، أساور من ذهب ولؤلؤ.

: ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ وإنّ اللّباس نوعٌ واحدٌ هو الحرير.

: ﴿وقالوا الحمد لله الّذى أذهب عنّا الحَزَن﴾.

: ﴿إنّ ربّنا لغفورٌ شكور﴾.

: ﴿الّذى أحلّنا دار المقامة من فضله﴾ إنّ دخول الجنّة تمّ بفضل الله تعالى.

: ﴿لا يمسّنا فيها نَصَبٌ ولا يمسّنا فيها لغوب﴾.

(٤)

(على الكافرين أن يؤمنوا بالله تعالى وبالرّسول ﷺ وإلاّ كان العذاب شديداً في الأولى والآخرة)

الآيات (٣٦ ـ ٤٥)

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ
نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ
عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ
فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ
أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ
فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

والّذين كفروا : والّذين كفروا بالله ورسوله(١).

لا يُقضى عليهم : بالموت(٢).

فيموتوا : لأنّهم لو ماتوا لاستراحوا(٣).

ولا يخفّف عنهم من عذابها : ولا يخفّف عنهم من هذا النّوع من العذاب(٤).

كذلك نجزى كلّ كفور : هكذا يكافىء كلّ جحود لنعم ربّه يوم القيامة(٥).

وهم يصطرخون فيها : يفتعلون من الصّراخ. حوّلت تاؤه طاءً لقرب مخرجها من الصّاد لمّا ثقلت(٦) فيه إبدال تاء الافتعال طاء، أصله يصترخون،

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢-٩٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٣.

جاءت التّاء بعد الصّاد قلبت طاءً قلباً قياسيّاً وزنه يفتعلون[1] أي يستغيثون ويضجّون في النّار[2] الصّاد والرّاء والخاء أُصيلٌ يدلُّ على صوتٍ رفيع. من ذلك الصُّراخ. يقال : صرخ يصْرُخ، وهو إذا صوّت. ويقال الصّارخ : المستغيث[3] والصَّرْخة : الصّيحة الشّديدة عند الفزع أو المصيبة. وقيل الصُّراخ الصّوت الشّديد ما كان[4].

نعمل صالحاً : أي نعمل بطاعتك[5].

غير الّذى كنّا نعمل : قَبْلُ من معاصيك[6].

أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر : الهمزة للاستفهام الإنكارى. الواو : عاطفة. ما نكرة موصوفة بمعنى وقت، متعلّق بـ: ﴿نعمّركم﴾[7] أي أولم نعمّركم وقتاً[8] المعنى : أولم نعمّركم يا معشر المشركين بالله من قريش من السّنين ما يتذكّر فيه من تذكّر من ذوى الألباب والعقول، واتّعظ منهم من اتّعظ وتاب من تاب[9].

وجاءكم النّذير : محمّد ﷺ[10].

بعد الحديث عن ثواب البررة المتّقين يأتى الحديث عن عقاب الفجرة الكافرين.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٢.

(٣) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «صرخ» ٣/ ٣٤٨.

(٤) لسان العرب : «صرخ».

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٣.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٣.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥٤.

(٨) الجلالين.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٣.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٣.

والّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ لهم نار جهنّم خالدين فيها، لا يُقْضَى عليهم بالموت فيستريحوا ولا يخفّف عنهم من ذلك العذاب في النّار من شيء. هكذا يجزى الله تعالى يوم القيامة كلّ كفور اتّسم بالكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ ويكفران نعم الله تعالى الّتى لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

وهؤلاء الكافرون يعلو صراخهم في النّار وتتوالى استغاثتهم يقولون يا ربّنا أخرجنا من النّار وردّنا إلى الدّنيا كي نطيعك ونعمل صالحاً غير الّذى كنّا نعمل من قبل في الدّنيا بمعصيتك ويكون جواب الحقّ لهم : ألم ننعم عليكم بنعمنا العظيمة وآلائنا الجسيمة ونعمّركم الوقت الّذى يتّعظ فيه عادةً أولو الألباب، ويرعوى فيه إلى الرّشد أولو النُّهى، خاصّة وقد جاءكم النّذير محمّد لله فأصررتم على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى، إنّ عليكم أيّها المشركون أن تذوقوا عذابي، وأن تخلدوا في نار جهنّم، فما للظّالمين من نصير، وما للمشركين من معين.

إنّ هؤلاء الكافرين لو ردّوا إلى الحياة الدّنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى. وإلى هذا المعنى أشار قوله عزّ من قائل في سورة الأنعام(١) : ﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على النّار فقالوا يا ليتنا نُرَدّ ولا نكذّبَ بآيات ربّنا ونكونَ من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يُخْفُون مِنْ قَبْل ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنّهم لكاذبون﴾ والمعنى : ولو ترى يا محمّد المشركين إذ حُبِسوا يوم القيامة على النّار ووقفوا على الصّراط الممدود على جهنّم والّذى ينبغى عليهم أن يعبروه فقالوا يا ليتنا نُرَدّ إلى الحياة الدّنيا ولا نكذّب بآيات الله تعالى وفي مقدّمتها القرآن الكريم ونكون من المؤمنين حقّاً لرأيت أمراً عظيماً وفظيعاً. بل الحقيقة أنّ المشركين بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل من الشّرك لأنّ الله تعالى أنطق أيديهم وأرجلهم وسمعهم وأبصارهم وجلودهم. ولو ردّ أولئك المشركون إلى الحياة الدّنيا مرّةً أخرى على سبيل الافتراض، لأنّ ذلك لن يكون، لعادوا لما نهوا عنه من الشّرك، وإنّهم لكاذبون في ادعائهم أنّهم سوف يكونون القمّة في الإيمان، بعد أن كانوا الدّرك في الكفر والكفران.

---

(١) الآية ٢٧ و ٢٨.

وجاء في صحيح البخاريّ عن أبى هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : أعذر الله عزّ وجلّ إلى امرىء أخّر عمره حتّى بلّغه ستّين سنة[1] ونصّ الحديث في صحيح البخارى[2] : «أعذر[3] الله إلى امرىءٍ أخّر أجله حتّى بلّغه ستّين سنة».

وبشأن النّذير محمّد ﷺ جاء في سورة المُلْك[4] عن الكافرين قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وللّذين كفروا عذابُ جهنّم وبئس المصير. إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكاد تميّز من الغيظ كلّما أُلْقِي فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذّبنا وقلنا ما نزّل الله من شيءٍ إن أنتم إلاّ في ضلال كبير. وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السّعير. فاعترفوا بذنبهم فَسُحْقاً لأصحاب السّعير﴾ وجاء في سورة الإسراء[5] قوله تعالى : ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا﴾.

ويصحّ أن تكون المعانى الثّنائيّة على النّحو التّالى :

: ﴿ والّذين كفروا لهم نار جهنّم. . . كذلك نجزى كلّ كفور﴾.

: ﴿ لا يُقْضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها﴾.

: ﴿وهم يصطرخون فيها ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الّذى كنّا نعمل﴾ إنّهم يصرخون وإنّهم يقولون ربّنا أخرجنا.

: ﴿أولم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءهم النّذير﴾ فثمة العمر الكافى للاتّعاظ، وثمّة الرّسول محمّد ﷺ.

: ﴿ فذوقوا فما للظّالمين من نصير﴾ فثمّة العذاب الّذى يذوقونه، وليس لهم من نصير.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٠.

(٢) صحيح البخارى ٨/ ١١١ وفتح البارى ١١/ ٢٣٨ حديث رقم ٦٤١٩.

(٣) الإعذار إزالة العذر. والمعنى أنّه لم يبق له اعتذار، كأن يقول : لو مُدّ لي في الأجل لفعلت ما أُمِرْت به. يقال : أعذر إليه إذا بلّغه أقصى الغاية في العذر ومكّنه منه. فتح البارى ١١/ ٢٤٠ وانظر اللّسان : «عذر».

(٤) الآيات ٦-١١.

(٥) الآية ١٥.

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ
غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى عالم غيب السّماوات والأرض والسرّ فيهما ومن باب الأحرى والأولى أن يحيط عزّ وجلّ علماً بعالم الشّهادة. وإنّ الشّيء ذاته يقال في حقّ الخلائق. إنّ الله سبحانه وتعالى عليم بما تخفيه الصّدور، وتضمره القلوب، وتوسوس به النّفوس. ومن باب الأحرى والأولى أن يحيط عزّ وجلّ علماً بكلّ قول وفعل. إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس. قال عزّ من قائل(١) : ﴿لَخَلْقُ السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ وحينما يحيط الله تعالى علماً بغيب السّماوات والأرض يحيط علماً بذات صدور المخلوقات الأخرى من باب الأحرى والأولى. إنّ على عباد الله تعالى أن يخلصوا العبادة لله تعالى وحده لا شريك له وأن يخلصوا النيّة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

هو الّذى جعلكم خلائف في الأرض : خلائف جمع خليفة، وخلفاء جمع خليف(٢) أي يخلف بعضكم بعضاً(٣) أمّةً بعد أمّة وقرناً بعد قرن(٤).

مقتا : المقت البُغْض الشّديد لمن تراه تعاطى القبيح. وكان يُسَمّى تزوّج الرّجل امرأة أبيه نكاح المقت(٥).

---

(١) سورة غافر ٥٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خلف» ١/٢٠٧.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «مقت» ٢/٦٠٨.

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل بعضنا يخلف بعضنا الآخر، وجعل هذه الأمّة تخلف السّابقة، وهذا القرن يخلف القرن السّابق ويأتي بعده. وقد أهلك الله تعالى الكثير من الأمم السّابقة كقوم نوحٍ عليه السّلام وعادٍ وثمود قوم هودٍ وصالحٍ عليهما السّلام، وأنشأ من بعدهم أمماً أخرى. وإنّ كلّ أمّةٍ بل إنّ كلّ فردٍ مسئولٌ وَحْدَه عمّا أتى من خيرٍ أو شرّ. وإنّ من كفر عليه كفره، لأن وبال كفره مرتدٌّ عليه. والعجيب في الكافرين أنّهم فرحون بكفرهم، سعداء بتكذيب رسل الله تعالى. ولا يزيد الكافرين كفرهم عند الله تعالى إلاّ أشدّ البغض والكره، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً في الأولى والآخرة.

وبشأن المعاني الثّنائيّة هي كما تبدو بوضوحٍ على النّحو التّالي : ﴿هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض، فمن كفر فعليه كفره﴾ : ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهّم إلاّ مقتاً، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً﴾.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ
بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

أم آتيناهم كتاباً : أم آتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السّماء بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام(١).

فهم على بيّنةٍ منه : فهم على برهانٍ ممّا أمرتهم فيه من الإشراك بي(٢) وحجّة(٣).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٤.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٤.

(٣) الجلالين.

بل إن يعد الظّالمون بعضهم بعضاً إلاّ غرورا : بل ما يعد[1] الظّالمون بعضهم بعضاً إلاّ غـروراً. وذلك قول بعضهم لبـعض: ما نعبد آلهتنا إلاّ لـيقرّبونا إلى الله زلفى، خـداعاً من بعضـهم لبعـض وغروراً. وإنّما تُزْلِـفُهُمْ[2] آلهتـهم إلى النّار، وتقصيهم من الله ورحمته[3].

قل يا محمّد للمشركين من قومك : أرأيـتم شركاءكم الّذين أشركتموهم مع الله تعالى في العبادة والّذين تدعـونهم من دون الله تعالى أروني ماذا خلقوا مع الله تعالى من الأرض، أم أنّكم أشركتموهم مـع الله تعالى في العبادة لأنّهم شركاء لله تعالى في خلق جـزءٍ من السّماوات أو أجزاء. أم أنّ الله تعالى أعطـاكم كتاباً من السّماء يـأذن لكم فيه بأن تشركـوا معه عزّ وجلّ غـيره في العبادة، فالمـشركون في عبادتهم الأصنام والأوثان، على بيّنةٍ من شركـهم وحجّةٍ وبرهان، من هذا الكتاب السّماويّ وبسببه! إنّ كلاًّ من هذه المعاني الـثّلاثة غير موجود، فالله تعالى هو الّذى خلق الأرض وحـده، وخلق السّـمـاوات وحـده، ولـم يأذن بالشّـرك ولم يأمـر بالفحشـــاء.

الحقـيقة أنّه مـا يعد الكافـرون بعضهم بعـضاً، بأنّ عـبادة الأصنام والأوثان تقرّبهم من الله تعـالى تقريباً، إلاّ غـروراً من القول وباطلاً من الزّعم وخـداعاً من الأمـــانى.

وبشأن المعاني الثّنائيّة هي كما تبدو بوضوحٍ على النّحو التّالى : ﴿قل أرأيتم شركـاءكم الّذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقـوا من الأرض، أم لهم شركٌ في السّماوات﴾.

: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم هلى بيّنةٍ منه. بل إن يَعِدُ الظّالمون بعضهم بعضاً إلاّ غـــرورا﴾.

---

(١) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥٧.

(٢) تُزلفهم : تقرّبهم.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٤.

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

أن تزولا : من مكانهما(١) ويمنعهما من الزّوال(٢).

ولئن زالتا : الواو عاطفة. اللّام موطئة للقسم(٣) ولئن زالتا في موضع لو، لأنّهما يجابان بجوابٍ واحدٍ فيتشابهان في المعنى(٤) والزّوال يقال في شيءٍ قد كان ثابتاً قَبْلُ(٥).

إن أمسكهما من أحد من بعده : ما أمسكهما أحد سواه(٦) إن : نافية.

أحد : مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ محلاً فاعل أمسكهما(٧).

إذا كانت الآية الكريمة السّابقة قد بيّنت عجز الآلهة المزعومة فإنّ هذه الآية الكريمة تبيّن مظهراً من مظاهر قدرة الله تعالى المطلقة. إنّ الله سبحانه وتعالى يمسك السّماوات والأرض أن تزولا من مكانهما، ويمنعهما من الزّوال بمعنى مفارقة المكان بالتّلاشي والاختفاء، أو بالحركة والاضطراب. ولو فرض أنّ مشيئة الله اقتضت أن تزول السّماوات والأرض فما يستطيع أحدٌ أن يمسك بهما من بعده عزّ وجلّ، أو يسيطر عليهما بحالٍ من الأحوال.

إنّ الله سبحانه وتعالى كان دائماً وأبداً حليماً يصبر على كفر خلقه وتعنتهم وأذاهم، ويمهلهم لعلّهم يعودون إلى الصراط المستقيم. إنّ على الكافرين أن

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٤.

(٢) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥٨ هامش رقم (١).

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥٨

(٤) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «زال» ١/ ٢٨٧.

(٦) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٤.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٥٨.

يحذروا من الظّنّ بأنّ إمهال الله تعالى لهم إهمالٌ لهم. وإنّ الله سبحانه وتعالى غفورٌ ذنب من استغفر وتاب وأناب.

جاء في سورة الحجّ[1] قوله تعالى: ﴿ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه. إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم﴾ وجاء في سورة الرّوم[2] قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السّماء والأرض بأمره ثمّ إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾.

وبشأن المعانى الثّنائيّة هي كما تبدو بوضوحٍ على النّحو التّالى: ﴿إنّ الله يمسك السّماوات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده﴾ ومن البيّن اشتمال الجملة الأولى على لفظتي السّماوات والأرض.

: ﴿إنّه كان حليماً غفورا﴾.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

وأقسموا: أي كفّار مكّة[3] وهؤلاء المشركون[4].

بالله جهد أيمانهم: غاية اجتهادهم فيها[5] وأشدّ الأيمان فبالغوا فيها[6].

---

(١) الآية ٦٥.

(٢) الآية ٢٥.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٥.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطبرى ٢٢/ ٩٥.

ليكوننّ أهدى : ليكوننّ أسلك لطريق الحقّ وأشدّ قبولاً لما يأتيهم به النّذير من عند الله[1].

من إحدى الأمم : الّتي خلت من قبلهم[2].

فلمّا جاءهم نذير : فلمّا جاءهم محمّدٌ ينذرهم عقاب الله على كفرهم[3].

إلا نفورا : هرباً[4] وتباعداً عن الهدى[5].

استكباراً : مفعول لأجله منصوب[6] أي استكبروا عن اتّباع آيات الله[7] والكبر والتّكبّر والاستكبار تتقارب. والاستكبار أن يتشبّع فيُظْهِر من نفسه ما ليس له[8] يقول : نفروا استكباراً في الأرض[9].

ومكر السّيّء : الواو عاطفة. مكر معطوف على استكبار[10] ومكر السّيّء مذموم، وهو صرف الغير عمّا يقصده بحيلة، وأن يتحرّى به فعل قبيح[11] والمكر ههنا هو الشّرك[12] أي ومكر العمل السّيّء من الشّرك وغيره[13] أي ومكروا

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٥.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٥.

(٣) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٥.

(٤) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٥.

(٥) الجلالين.

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٦٠.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «كبر» ٢/ ٥٤٥.

(٩) تفسير الطّبري ٢٢/ ٩٥.

(١٠) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٦٠.

(١١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «مكر» ٢/ ٦٠٩.

(١٢) تفسير الطّبريّ ٢٢/ ٩٥.

(١٣) الجلالين.

بالنّاس في صدّهم إيّاهم عن سبيل الله(١).

ولا يحيق المكر السّيّىء إلاّ بأهله : ولا ينزل المكر السّيّىء إلاّ بأهله الّذين يمكرونه(٢) ولا يحيط(٣) وما يعود وبال ذلك إلاّ عليهم أنفسهم دون غيرهم(٤) قال محمّد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهنّ لم ينج حتّى ينزل به من مكر أو بغي أو نكث. وتصديقها في كتاب الله(٥) : ﴿ولا يحيق المكر السّيّىء إلاّ بأهله﴾ و(٦) : ﴿إنّما بغيكم على أنفسكم﴾ و(٧) : ﴿فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه﴾(٨).

فهل ينظرون : فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمّد(٩).

إلاّ سنّة الأوّلين : إلاّ سنّة الله بهم في عاجل الدّنيا على كفرهم به أليم العقاب(١٠).

تبديلا : تغييرا(١١) أي لا يبدّل بالعذاب غيره(١٢).

تحويلا : لا يحوّل العذاب إلى غير مستحقّه(١٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٥.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٥) سورة فاطر ٤٣.

(٦) سورة يونس ٢٣.

(٧) سورة الفتح ١٠.

(٨) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٥.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٥.

(١٠) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٥.

(١١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٩٦.

(١٢) الجلالين.

(١٣) انظر الجلالين.

وأقسم كفّار مكّة ومشركو العرب بالله تعالى العظيم، وبلغوا غاية اجتهادهم في أيمانهم، لئن جاءهم نذيرٌ من الله تعالى ليكوننّ أهدى من أيّ أمّةٍ من الأمم الّتي أرسل الله تعالى إليها نذيراً، كاليهود الّذين أرسل الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام، وكالنّصارى الّذين أرسل الله تعالى إليهم عيسى عليه السّلام.

فلما جاء كفّارَ مكّة محمّدٌ ﷺ ينذرهم بين يدي عذاب يوم القيامة الشّديد ما زادهم مجيئه عليه الصّلاة والسّلام إلاّ نفوراً واشمئزازا. استكباراً في الأرض وتعالياً أن يتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يأمرهم بإفراد الله تعالى بالعبادة والسّجود لله عزّ وجلّ وَحْدَه، ومكر العمل السّيّىء بصدّ الآخرين عن سبيل الله تعالى، وبذلك جمعوا بين الشّرك في حقّ أنفسهم، والصّدّ عن سبيل الله تعالى في حقّ الآخرين.

ويقرّر السّياق أنّ المكر السّيّىء لا يحيق إلا بأهله، ولا يحيط إلاّ بأصحابه ذوى النّوايا الخبيثة، ولا يرتدّ إلاّ عليهم فيكون مصيرهم وبالاً وعاقبتهم خسرانا. وهذا المعنى يذكّرنا بمثل قول الحقّ عزّ وجلّ في سورة الأنفال[1] : ﴿إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرةً ثمّ يغلبون. والّذين كفروا إلى جهنّم يُحْشرون﴾.

فهل ينتظر كفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين إلاّ سنّة الله تعالى في الأوّلين الّذين دمّرهم الله تعالى تدميرا بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى، وهل ينتظر الكافرون غير عذاب الله تعالى الأليم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً فيؤمنوا ويعملوا صالحاً.

إنّك يا محمّد وإنّك أيّها الإنسان لن تجد لسنّة الله تعالى تبديلاً ولا تغييراً فلن يكون ثمّة بديلٌ عن العذاب، ولن تجد لسنّة الله تعالى تحويلاً بتوجيه العذاب إلى غير مستحقّيه.

وإلى معنى الآيتين الكريمتين أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنعام[2] : ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتّبعوه واتّقوا لعلّكم تُرْحمون. أن تقولوا إنّما أُنْزِل

---

(١) سورة الأنفال ٣٦.

(٢) الآيات ١٥٥-١٥٧.

الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنّا أُنْزِل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم. فقد جاءكم بيّنةٌ من ربّكم وهدىً ورحمة. فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها. سنجزى الّذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾.

وبشأن المعاني الثّنائيّة هي كما تبدو بوضوح على النّحو التّالي: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذيرٌ ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم. فلمّا جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلاّ نفورا﴾.

: ﴿استكباراً في الأرض ومكر السّيّىء﴾.

: ﴿ولا يحيق المكر السّيّىء إلاّ بأهله. فهل ينظرون إلاّ سنّة الأوّلين﴾.

: ﴿فلن تجد لسنّة الله تبديلا. ولن تجد لسنّة الله تحويلا﴾.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ
ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

أعميت بصائر المشركين ولم يسيروا في الأرض للتّجارة وما إليها فينظروا بعيونهم الّتي في رءوسهم كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم من الكافرين المكذّبين

رسل الله تعالى إليهم، وقد كانوا أشدّ من كفّار مكّة قوّة، كعادٍ في جنوب الجزيرة العربيّة وثمود في شمال الجزيرة العربيّة الّذين قطعوا الصّخر بوادى أمّ القرى. لقد أهلك الله تعالى الكافرين السّابقين الأقوياء، وما كان الله سبحانه وتعالى ليعجزه من شيءٍ أراده في السّماوات والأرض. إنّه عزّ وجلّ كان دائماً وأبداً عليماً بمن يستحقّ الإمهال ومن يستحقّ الإبادة، قديراً على كلّ شيء، فعّالاً لما يريد.

ولو يؤاخذ الله تعالى النّاس بما كسبوا من آثام ما ترك على ظهر الأرض من دابّةٍ تدبّ وعينٍ تطرف، ولكن يؤخّر عزّ وجلّ عباده إلى أجلٍ مسمىً وموعدٍ مضروبٍ لحسابهم وجزائهم هو يوم القيامة. فإذا جاء ذلك الأجل المعدود والموعد المضروب فإنّ الله سبحانه وتعالى كان بعباده بصيراً، يثيب المؤمنين الأبرار، ويعاقب الكافرين الفجّار.

وبشأن المعانى الثّنائية هي كما تبدو بوضوحٍ على النّحو التّالى : ﴿أو لم يسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم﴾.

: ﴿وكانوا أشدّ منهم قوّة. وما كان الله ليعجزه من شيءٍ في السّماوات ولا في الأرض﴾ ويلاحظ مجيء كلٍّ من السّماوات والأرض في الجملة الثّانية.

: ﴿إنّه كان عليماً قديرا﴾.

: ﴿ولو يؤاخذ الله النّاس بما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابّة﴾.

: ﴿ولكن يؤخّرهم إلى أجلٍ مسمّى. فإذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيرا﴾.

•• تعقيب :

نودّ أن نذكر في هيئة نقاط بعض الأمور المتعلّقة بسورة فاطر جمعاً في نَسَق لما تناثر في أثناء الدّراسة من هذه الأمور المتعلّقة بجلال معنى السّورة الكريمة وجمال مبناها.

١ - سورة فاطر آخر السّور الخمس المكّيّة الّتى تبدأ بالقول : ﴿الحمد لله﴾ وبقيّة السّور هي الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ.

٢ - الصّفة الّتى تختصّ بها سورة فاطر من بين سور القرآن الكريم من جهة الأسلوب هي المعاني الثّنائيّة الّتى تصبغ السّورة الكريمة من أوّلها إلى آخرها. وإنّ كلّ متدبّرٍ للسّورة الكريمة يتبيّن هذه المعاني الثّنائيّة في كلّ آيات السّورة الكريمة بدون استثناء يقف خاشعاً أمام هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم. وما دامت هذه الصّفة تتّسم بها كلّ آيات السّورة الكريمة، وقد بيّنّا ذلك في أثناء الدّراسة، فلا داعي لضرب الأمثلة على ذلك لأنّ كلّ آيةٍ كريمةٍ تدلّ على هذه الصّفة.

٣ - الصّفة الّتى تتّسم بها سورة فاطر من جهة المعنى أنّها يجيء فيها عددٌ كبيرٌ من أسماء الله تعالى الحُسْنى بصريح اللّفظ، ووراء ذلك يكثر في السّورة الكريمة الحديث عن بعض نعوت الذّات العليّة بحيث إنّه يمكن وضع بعض أسماء الله تعالى الحُسْنى استنتاجاً من تلك النّعوت. وهذه الأسماء الحُسْنى المذكورة بصريح اللّفظ والمفهومة ضمناً والّتى تقترن بالكثير من الآيات الكريمة في سورة فاطر الكريمة تحملنا على القول إنّ السّورة الكريمة تهدف في المقام الأوّل إلى تبيين أبعاد معاني حمد الله تعالى الّذى ابتدأت به السّورة الكريمة في القول : ﴿الحمد لله﴾. ودليلاً على أنّ المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة تبيين نعوت الحقّ جلّ وعلا المستحقّ لكلّ الحمد بمعنى كلّ الثّناء في إمكاننا ذكر الآيات الكريمات الّتى جاءت فيها الأسماء الحسنى بصريح اللّفظ والإيماء إلى الأسماء الحُسْنى المفهومة ضمناً.

قال تعالى[1] : ﴿الحمد لله فاطر السّماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً

---

(١) سورة فاطر ١.

أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع. يزيد في الخلق ما يشاء. إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير﴾ إنّ في الآية الكريمة اسمين للذّات العليّة بصريح اللّفظ : ﴿الله﴾ ﴿قدير﴾ وصفة القدرة المطلقة للذّات العليّة تتجلّى في الآية الكريمة. ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿فاطر السّماوات والأرض﴾ اسم البديع. وأن نفهم من القول ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ اسم الحفيظ. وأن نفهم من القول : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ اسم الخالق.

وقال تعالى(١) : ﴿ما يفتح الله للنّاس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده. وهو العزيز الحكيم﴾ إنّ في الآية الكريمة ثلاثة أسماء للذّات العليّة : ﴿الله﴾ ﴿العزيز﴾ ﴿الحكيم﴾ ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿ما يفتح الله للنّاس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ اسمي الرّحمن الرّحيم. ومعروفٌ أنّ ﴿الرحمن﴾ عظيم صفات الله تعالى. كما أنّ لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ عظيم الأسماء.

وقال تعالى(٢) : ﴿ يا أيّها النّاس اذكروا نعمة الله عليكم. هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله يرزقكم من السّماء والأرض. لا إله إلاّ هو فأنّى تؤفكون﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ الّذي جاء مرّتين اثنتين. ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة وراء ذلك أسماء المنعم، والخالق، والرّازق. ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿لا إله إلاّ هو﴾ أسماء الواحد الأحد الفرد الصّمد.

وفي الآية الكريمة الرّابعة لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ ونستطيع أن نفهم اسم الحسيب.

وفي الآية الكريمة الخامسة جاء لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ مرّتين اثنتين.

ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة السّابعة أسماء المنتقم والغفور والشّكور.

وقال تعالى(٣) : ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً فإنّ الله يضلّ من يشاء

---

(١) سورة فاطر ٢.

(٢) سورة فاطر٣.

(٣) سورة فاطر ٨.

ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات. إنّ الله عليمٌ بما يصنعون﴾ إنّ في الآية الكريمة اسمين للذّات العليّة : ﴿الله﴾ ﴿العليم﴾ وقد جاء لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ مرّتين اثنتين. ونستطيع أن نفهم من القول : ﴿فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء﴾ اسم الهادي.

وقال تعالى(١) : ﴿والله الّذى أرسل الرّياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها. كذلك النّشور﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة وراء ذلك اسمي المحيى المميت.

وقال تعالى(٢) : ﴿من كان يريد العزة فللّه العزّة جميعا. إليه يصعد الكلم الطّيّب والعمل الصّالح يرفعه. والّذين يمكرون السّيّئات لهم عذابٌ شديدٌ ومكر أولئك هو يبور﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة وراء ذلك اسمي العزيز والشّكور.

وقال تعالى(٣) : ﴿والله خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ جعلكم أزواجا. وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه. وما يُعَمَّر من معمَّرٍ ولا يُنْقَص من عمره إلاّ في كتاب. إنّ ذلك على الله يسير﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ الّذى جاء مرّتين اثنتين. ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة وراء ذلك أسماء الخالق، والعليم، والحفيظ.

وقال تعالى(٤) : ﴿يولج الّليل في النّهار ويولج النّهار في الّليل وسخّر الشّمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مسمّى. ذلكم الله ربّكم له الملك. والّذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ واسم الله تعالى «الرّبّ» في القول : ﴿ذلكم الله ربّكم﴾ ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة

---

(١) سورة فاطر ٩ .

(٢) سورة فاطر ١٠ .

(٣) سورة فاطر ١١ .

(٤) سورة فاطر ١٣ .

وراء ذلك اسم القدير من صدر الآية الكريمة، والملك من القول : ﴿له المُلك﴾.

وقال تعالى(١) : ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبّئك مثل خبير﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة : ﴿الخبير﴾ وذلك في التّذييل. ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة وراء ذلك اسمي السّميع المجيب.

وقال تعالى(٢) : ﴿يا أيّها النّاس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ الّذى جاء مرّتين اثنتين واسمي : ﴿الغنيّ﴾ ﴿الحميد﴾.

وقال تعالى(٣) : ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد. وما ذلك على الله بعزيز﴾ وبالإضافة إلى لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ نستطيع أن نفهم اسمي القادر والخالق.

وفي الآية الكريمة الثّامنة عشرة اسم الرّبّ من القول: ﴿يخشون ربّهم﴾ ولفظ الجلالة: ﴿الله﴾.

وفي الآية الكريمة الثّانية والعشرين لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ ونستطيع أن نفهم من القول: ﴿إن الله يُسْمع من يشاء﴾ اسم الهادى. إنّ الله تعالى وحده دون سواه هو الّذى بيده هُدَى التّوفيق.

وفي الآية الكريمة السّابعة والعشرين لفظ الجلالة: ﴿الله﴾ وذلك في القول: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماء﴾ ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة وراء ذلك اسم القادر.

وقال تعالى(٤) : ﴿ومن النّاس والدّوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك. إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماء. إنّ الله عزيزٌ غفور﴾ إنّ في الآية الكريمة لفظ الجلالة : ﴿الله﴾ واسمي العزيز والغفور في القول : ﴿إنّ الله عزيزٌ غفور﴾.

---

(١) سورة فاطر ١٤.

(٢) سورة فاطر ١٥.

(٣) سورة فاطر ١٦ و ١٧.

(٤) سورة فاطر ٢٨.